الحجاب والمجتمع وآليات التكيف

د . طالب عبد الرضا

المقــدمة :

ينظر الى ظاهرة الحجاب بمستويات متعددة الأبعاد بوصفه ظاهرة تتصل بثقافة المجتمع الذي تنتمي اليه المرأة ، فمنهم من يراه برؤية دينية ، ومنهم من يراه برؤية اجتماعية تتمثل لمتطلبات المجتمع وأعرافه وعاداته وتقاليده يتم بموجبها لبس الحجاب وفق مراعاة النسق الاجتماعي الضاغط الذي يصعب مخالفته فيجاري فيما يرتدي ، وهناك من له رؤية اخرى ترتبط بالسلوك الشخصي أو الفردي للمرأة وخاصةً إذا كانت في مجتمع تقليدي شبه مغلق في علاقاته الانسانية .

عادةً ما يكون الحجاب عامل مهيئ الجو النفسي لمقاومة تأثير الأجواء الداعية الى الانحراف وهو بذلك وسيلة لتحقيق رضا اجتماعي عام يجسد فيه شرف المرأة وعفتها ، لذلك أصبح حجاب المرأة المسلمة من الموضوعات الساخنة لاسيما وإن هناك سلوكيات حجابيه من لدن نساء محجبات متنوعة ومواقف اجتماعية وسياسية مختلفة في المجتمع العراقي ، فبينما نرى من تلتزم به تديناً من موقع القناعة الذاتية وهن الأكثر والحمدُ لله ، وبين من ترتديه بذوق واخرى بلا ذوق ، وبين محجبة ذات ثقة عالية بنفسها ، واخرى تعيش مشكلة نفسية حادة من جرائه ، وبين محجبة هي أفضح تبرجاً من السافرات . و بهذه الصفحات القليلة جداً أريد أن اشير وباختصار شديد الى بعض الأبعاد حول رمزية الحجاب أو ثقافة الحجاب وفق الآتي :

أولاً : الحجاب .... الآراء والتعريف

يذكر الدكتور علي الوردي إن حجاب المرأة يتأثر بالظروف البيئية والثقافية واخذ الحجات في المجتمع العراقي دلالات مختلفة تبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية وتأثر بأوضاع المجتمع وعاداته وتقاليده ، وقد يرى البعض إن الحجاب هو سلسلة من التدابير الاحترازية الكفيلة التي تدفع المرأة من الوقوع في مهاوي الرذيلة والاختلاف مع الرجل ، وتبعدها من تعدد أوجــه الدلالات الاجتماعيــة والعرفية والدينية وتعدد الرموز التي تختبأ وراء الحجاب لتبرز صورة المرأة الضبابيــة .

ووفق هذه الدلالات والآراء فهل الحجاب صــورة من صــور آليات القهر النفســي والاجتماعي أم هو صورة للأمان الاجتماعي ....؟

وهــل هو رمزاً دينيــاً أم رمــزاً أجتماعيــاً ... ؟ وهل تصدق عليه المقولة الغربية (الحجاب يقهر النساء المسلمات) وربما هذه التساؤلات تكون الأولى بالإجابة عليها مؤسسات تكون اكثر تأثيراً وقرباً بثقافة

الحجاب وأهمها : مؤسسة الأسرة ، المؤسسة الدينية ، المؤسسة التعليمية ، المؤسسة السياسية ، وآراء العلماء والباحثين بالشأن الأسري .

وبما يخص مفهوم الحجاب فيعني في اللغة الستر حجب الشيء يحجبهُ ، حجباً ، وحجبتهُ سترهُ وقد احتجب إذا كانت وراء حجاب ،. وامرأة محجوبة قد سترت بستر الحجاب ، وكل ما يحول بين شيئين يسمى حجاب [١]. ومن قوله تعالى (حتى توارث بالحجاب) [٢].وقوله (فاتخذت من دونهم حجاب)[٣] . فالحجاب جسم حائل بين جسدين ، ومعنى الحجاب وفق المفهوم الشرعي يعني اللباس الذي يستر المرأة حتى لا تظهر زينتها للأجنبي أو تكون محط انذار الرجال وهو يستر المرأة ماعدا الوجه والكفين والقدمين ، وقد أمر القرآن الكريم المرأة بالستر في قوله تبارك وتعالى (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) [٤].

كذلك للحجاب بعداً نفسياً إذ يتفق أغلب العلماء في ذلك فهو عامل من عوامل السلامة والحفاظ على الجسم والشعور بالأمان ، وفي الوقت نفسـه فهو حجاب للرجال إذا كانوا أجانب ، ويرى علماء الاجتماع إن الحجاب من التقاليد الاجتماعية التي هي واحدة من العناصر المؤلفة والمؤثرة في الثقافـة .

ثانياً : الحجاب وأبعاد التكيف

كان لباس المرأة قبل الإسلام يتخذ اشكالاً مختلفـة ، ولشكل اللباس دلالة لمعرفـة المرأة الحـرة عن الأمـة ، فلباس الحـرة قبل الإسلام كان غـطاء للرأس يقي الرأس من الحـر ويجمع الشعر من التبعثر وثوبها طويل يستر القسم الأسفل من الجسـد ، في حين كان لباس المرأة الامـة غير متحجباً بالقدر الذي تحجب فيه مفاتنها وذكر عن (ترتوليان) الواعظ المسيحي في العصر الجاهلي فقد خاطب نصرانيات عصره بقوله " تسخر منكن العربيات اللاتي لا يغطين رؤوسهن فحسب بل كامل وجوههن حتى إنهن يكتفين بالاستمتاع من نصف النور بعين واحدة يخرجنها بدل عرض الوجه بالكامل " ، فالمرأة تفضـل على أن تكون ناظرة على أن تكون منظورة [٥].

وكان من مظاهر الحرمان وسلب الحقوق الذي تعانيه المرأة قبل الاسلام بأنها تحرم من النور في بعض الأماكن ولا يبدو منها حتى كفيها ، وفي المجتمع البدوي الذي يقدس الفضيلة ويقتل الرذيلة فكانت النساء عفيفات يتجنبن المخالطة مع الرجال وأبواب المحرمات ، وربما يكون لعامل المناخ وقسوة الصحراء أثراً كبيراً على الزي العربي آنذاك ولم يكن النقاب أو البرقع إلا وسيلة تلجأ اليها المرأة والرجل على حدٍ سواء ، وفي الإسلام حظيت المرأة بمكانة عزيزة وسامية وشعرت بوجودها وحريتها ولم يكن التشريع الاسلامي سلطة جبرية بقدر ما هو رقابة وتوجيه لكي لا تصبح المرأة في درك المهانـة أو تكون مسرحاً للناظرين ، وقد أمر الله تبارك وتعالى النساء بالحجاب خوفـاً عليهن وسداً لذرية الفساد في المجتمع المسلم ولقدسية الحجاب أمر الله تبارك وتعالى النبي الكريم عليه افضل الصلاة وعلى أهل بيته الأطهار بأن يأمر أزواجه وبناته قبل نساء المؤمنين بوجوب ارتداء الحجاب بقوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء

---

[١]- أبن منظور ، لسان العرب ، ج٣ ، ط٣ ، دار الأحياء والتراث العربي ، باب حجب ، (ب،ت) ، ص٥١ .
[٢]- سورة ص ، الآية ٤٢ .
[٣]- سورة مريم ، الآية ١٧ .
[٤]- سورة النور ، الآية ٣١ .
[٥]- د. رجاء بن سلامة ، بنيان الفحولة – أبحاث في المذكر والمؤنث ، دار المعرفة للنشر ، تونس ، ٢٠٠٦ ، ص٧٦ .

المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) [١]. ويأمر الله تبارك وتعالى بستر المرأة بقوله (وقل للمؤمنات يغضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمورهن) [٢].

وقوله تبارك وتعالى (وإذا سألتموهن متاعاً فأسالوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن) [٣].

وفي بيان حدود الستر أمر الدين الاسلامي من المرأة المسلمة غض الطرف وحفظ الفرج إذ إن الإسلام دين يقوم على تهذيب النفس ليكون مدخـلاً لتهذيب الحواس .

لقد أصبح الحجاب في العصر الحديث جزء من الحركة الاسلامية وهو جزء من ثقافة المسلمين حيث أصبحت المرأة المسلمة تلبس الحجاب بإرادتها لتعبر عن التزامها بتعاليـم دينها حيث زاد الاهتمام بالحجاب والالتزام به بعد الصحوة الإسلامية خاصـةً بعـد الثورة الإسلامية في أيران [٤]. بل تجاوز انتشـار الحجـاب الإسلامي حدود العالم الإسلامي ليثبت انتشاره في الشارع الأوربي على الرغم من بعـض السياسات الغربية التي تحارب الحجاب وتشـدد على عـدم لبسـه وخاصـةً في المؤسسـات الرسميـة كالجامعـات مثـلاً ، فقـد دعت الحكومـة الفرنسيـة الى وضـع القيـود على الحجاب ومنعه ولا سيما القاصرات المحجبات في المدارس بتشريعـات عرفت (قوانين التربية الجمهورية والعلمانية في فرنسا)[٥].

وعلى الصعيد الداخلي كانت السلطات الداخلية تمنع النساء من الحجاب وينظر اليه بأنهُ تحدي للدولة ومؤيد لأفكار إسلاميـة كانت السلطات تحارب رموزهـا القيادية من الرجـال والنسـاء إذ كانت السلطات في فترات الثمانينات والتسعينات تمنع الحجاب في المدارس الثانوية والجامعات ويتهمـون النساء المحجبات بانتمائهن لأحزاب اسلامية معارضـة وتتعرض الفتاة المحجبـة في كثير من الأحيان الى الاعتقال أو الطرد .

وبعد عام ٢٠٠٣ شهد العراق إنتشـاراً واسعاً لظاهرة الحجاب بين النساء وعند كافة الأعمار حتى أصبح ارتدائه ظاهرة منتشرة وواسعة في المدارس الابتدائية إذ اصبح الحجاب عنواناً للمرأة وجزء من شخصيتها سواء كانت بإرادتها أو بغير إرادتها وحتى بعض النساء غير المسلمات يرتدين الحجاب وفقاً للبيئة الاجتماعية التي تعيش فيها المرأة ، حيث ظهرت أشكال عديدة للحجاب منها الحجاب الخليجي ، والحجاب الإيراني ، والحجاب المصري ، واحياناً يأخذ شكلاً متطرفاً للتحجب بتوشيح المرأة بالسواد والنقاب ولبس القفازات السود الذي يعزى لبسـه الى صورة متشـددة عن سياسـة ذلك البلد وربما تأثرت بعـض النساء العراقيات بهـذه الأزياء من خلال الاحتكاك بالوفود الزائرة الى العراق .

ثالثاً : استنتاج وتوصيات

[١]- الأحزاب ، الآية ، ٥٩ .
[٢]- النور ، الآية ، ٣١ .
[٣]- الأحزاب ، الآية ، ٥٣ .
[٤]- راضي عنون ، رمزية الحجاب – الدلالات الاجتماعية ومظاهر الانحراف ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القادسية ، كلية الآداب ، قسم الاجتماع ، ٢٠١٣ ، ص ٥٢ .
[٥]- راضي عنون ، نفس المصدر ، ص ٥٣.

لقد جاء الاسلام وهو يحمل اهدافاً سامية ويقرر وحدة الجنس البشري ويهدم قواعد التفرقة الزائفة ليرد البشر الى حقيقتهم الكبيرة وليرجعهم الى اصلهم الواحد من خلال الآية الكريمــة (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) [1].

وهكذا كان الاسلام ثورة اجتماعية هائلة بدلت الاوضاع الاجتماعية بعد أن قاست البشرية منذ فجر التاريخ من التفاوت والظلم الاجتماعي مما جعل قضية المساواة آخر قضيــة في تاريخ العالم القديم . وفي اعتقد الباحث هناك جملة من الأسباب والظروف تظافرت لتدفع النساء الى التحجب منها :

آ- الدور الفاعل والموجه للمؤسســة الدينية في العراق وعلى كافة المجالات وخصوصاً بعد عام ٢٠٠٣ .

ب- الاغتراب الحضاري والخوف من المستقبل ورغبة الاسرة العراقية في حماية أفرادها من الانحلال الأخلاقي .

ت- رغبة الاسرة العراقية من التمسك بالأصالة خلال التغيرات السريعة التي تمر بالمجتمع ، وهذه كانت عوامل مشجعة ايجابية دفعت المرأة طوعاً الى التحجب أيماناً منها بأنهُ الطريق الأصلح الذي يضمن لها رضا الله تبارك وتعالى .

وللبحث توصية تتعلق بدور التنشئة الاسرية في هذا المجال وأن تفهم الفتاة ما هو القصد من لبس الحجاب وما هو أثره النفسي والاجتماعي عليها حتى تعرف ما للحجاب من قيمة إنسانية للمرأة وتأصيل قبولها بالسلوكيات المطلوبة اجتماعياً وعليه لا بد من تعميق الوعي الاخلاقي في ضبــط السلوك وتهذيب الذات بما لا يخدش الحياة الاجتماعية للمرأة .

[1]- النساء ، الآيــة ، ١ .